

التعليم عن بعد : دراسة في البعد السيكوسوسيولوجي

أنس بوابرين

أستاذ بوزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي بالمغرب

المقدمة:

إن قضية فلسفة القيم برغم نزوعها التاريخي، وما خلفته من إرث ثقيل تنظيرا وممارسة، لكنها تستحدث على الدوام تفاعلا تمليه السؤالات المعاصرة، في ظل عالم متغير، لاسيما في مجالي التربية، والتعليم، وما راكمه هذا التغيير بعد جائحة كورونا من أبعاد سوسيولوجية، ونفسية، تعددت تجلياتها في حيز الزمان والمكان، وانبثق عنها وعي جمعي عميق بضرورة مأسسة كل أشكال التفاعل مع هذا المعطى الفجائي، وهو ما استحث النخب والمؤسسات، على ترقية مختلف الإسهامات والجهود، وإبداع آليات، وتمهير وسائل غير نمطية من حيث فقهاها، وإن ترددت مادتها في العديد من الدراسات، تكون ضامنة لترشيد الفعل التربوي، والتعليمي، وتعصم من مغبة مكننة المعلم و المتعلم، أو تجريد الفعل التعليمي من التواصل الحضاري المنشود، مع استحكام الثقة في منظومتنا المرجعية القيمية، والثقافية، أنها تسمو بالممتنع إلى الإمكان، ولو في حالة من حالاته، فضلا عن الممكن ضرورة. وقد تكشّف من خلال هذه الورقة حجم الخطورة التي تكتنف التعليم عن بعد في غياب استراتيجيات واضحة تغالب بعض المخاطر المتوقعة في العملية التعليمية مابعد كورونا، مع استشراف بدائل وخطط قد تفي- في تقديري- بوضع تعليمي أحسن يستثمر معطيات الثورة الصناعية الرابعة بعمق وموضوعية، ويحترز من مزالق ردود الفعل العابرة، ويتقي- إلى جانب ذلك كله، تنميط المتعلم/الإنسان، أو سلخ التعلم عن منظومته القيمية اللازمة لبناء الحضارة المنشودة.

التعليم عن بعد: التواصل والقطيعة

إن البيئة النفسية التي تكتنف المتعلم وما يصاحب ذلك من عوامل طبيعية محيطة تعد المدخل الأساس في تحقيق تعلم هادف. إذ أنه « مما لاشك فيه أن الحالة الصحية والنفسية للتلميذ تؤثر في عملية التعلم، وبالمثل العوامل الطبيعية التي تتصل بحجرة الدرس أو بالمواد التعليمية المستعملة^١، ومن هنا استمد سؤال التواصل والقطيعة مشروعيتها في ظل نموذج التعليم عن بعد، فهل فعلا يتيح هذا النموذج التواصل المنشود؟ أم أنه لا يعدو أن يكون تشيئنا للمتعلم والتعلم على حد سواء؟ وهل ادعاء القطيعة بين البيئة النفسية الايجابية وبين المتعلم والعملية التعليمية له ما يبرره؟ هذه كلها أسئلة قد يكون سابقا أو ان الجزم بأجوبتها إثباتا أو نفيًا. ومع هذا فإن ضرورة تحليلها ومطابقتها بات حتما على ذوي الاختصاص من أفراد، وهيئات، ومنظمات، ومؤسسات، في كل ربوع الأرض. ذلك أن الممارسات الصفية في بعدها السيكولوجي أمر لا يمكن تجاهله، وهو أحد العوامل المهمة التي يفتقدها التعليم عن بعد، وحتما سيكون لذلك أثر صعب على المستويين المتوسط، والبعيد، وبخاصة أن بعض التعريفات في تحديدها ماهية التعليم عن بعد لم تجد بدا من الإقرار بمفهوم الفصل - وهو مرحلة أولى في سلم القطيعة - تصريحًا أو تضمينًا، كما هو الشأن في تعريف المركز الوطني للوثائق التربوية حيث اصطلح على أن التعليم عن بعد هو « الفصل بين المعلم والمتعلم والاعتماد على تنظيم تربوي تؤدي فيه الوسائط التكنولوجية دورا مهما في ربط المعلم بالمتعلم من أجل تنفيذ المحتوى التعليمي للمقرر الدراسي، مع إمكانية عقد لقاءات دورية بين المعلم والمتعلم لتحقيق أهداف محددة تعليمية واجتماعية^٢، لأن غياب الجوانب العلائقية المباشرة التي تربط المتعلم في مجتمع المعرفة مع زملائه وكذا معلمه بل مع الأشياء التي نسج معها علاقة نفسية تواصلية، غياب هذه الجوانب مما قد لا يتحملة المتعلم مع هذا الاتجاه المهول نحو مهنة المعرفة، ومكننة المتعلم، وقد يكون من المجازفة الادعاء أننا نمارس عملية تربوية بامتياز في ظل هذه المعطيات المتداخلة، وبالنظر إلى واقع التعليم عن بعد في عدد من دول العالم الثالث، خلافا لما ورد في تعريف هيلاري بيراتون hiliary perraton

١ حسين حمدي الطوبجي : وسائل الاتصال والتكنولوجيا في التعليم ، الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤ ، الطبعة التاسعة ص ٢٥ .

٢ المركز الوطني للوثائق التربوية: سلسلة من قضايا التربية، الملف رقم ٣٣، مصطلحات ومفاهيم تربوية، ص ٢٣

١٩٨٨ من اعتبار التعليم عن بعد " عملية تربوية " ولربما ستكتشف البشرية في وقت متأخر حجم الدمار النفسي الذي خلفته الآلة الالكترونية بجميع صورها وأشكالها ، والآثار المعقدة للتعليم عن بعد لدى المتعلمين، برغم ما يمكنها تحقيقه على مستوى المعرفة المجردة.

من المجتمع الإنساني إلى المجتمع المعلوماتي:

إن الإقرار بهذا التحول أمر لا مناص منه، «إذ يتوقع أن لا يتم التحدث من الآن فصاعداً عن دول غنية وأخرى فقيرة، بل عن دول عالية أو منخفضة الثروة المعرفية والموارد البشرية المؤهلة (عبد الواحد ودياب). (١٤، ٢٠٠٣، ٣)»، لكن ذلك لا يعني بالضرورة الاتجاه نحو الكارثة، بل يبقى التوازن أمراً منشوداً، حتى يتحقق التطور الإيجابي الكفيل بتنمية مستدامة. ولأجل هذا ينبغي - في ظني - العمل على ترسيخ بعض الثنائيات المهمة لدى الأجيال القادمة، ومنها:

- نحو الإنسان المبدع لا الآلة الجامدة.
- نحو بناء الإنسان لا تقديس الوسيلة.
- نحو أنسنة المجتمع لا تشيئ أفراده.
- نحو عقلية نقدية لا لوغارتمية.
- نحو التعددية لا التنميط.
- نحو معرفة بحامل قيمي لا خواء المعرفة.

إن هاجس بناء مجتمع المعرفة لا ينبغي أن يغيب سؤال طبيعة هذا المجتمع، حتى لا تؤدي التجاذبات بين القوى المختلفة إلى اندحار حضاري قوامه الصراع، و التنازع الفظيع حول أدوات المعرفة لا ذات المعرفة، والمؤدي حتماً إلى بهيمية تشكل أحد ملامح القرن الواحد والعشرين و تغلفها الثورة التكنولوجية الحديثة. إذ لا معنى « للمجتمع العالمي للمعلومات، إن لم يسهل انطلاق مجتمعات المعرفة؛ ويقترح كهدف أن تكون التنمية الإنسانية قائمة على حقوق الإنسان».

٣ لي أيرز شلوسر ومايكل سيمونسن: نظريات التعليم عن بعد ومصطلحات التعليم الإلكتروني، ترجمة نبيل جاد عزمي، مسقط: مكتبة بيروت ٢٠١٥، الطبعة الثانية، ص٩.

٤ المقال: غسان العمري ، بلال السكارنة، أديب يوسف الخشاب، «مجتمع المعرفة وتأثيره في العمل المعرفي»، «تنمية الرافدين»، ٢٠٠٨م، العدد ٩٥، ص١٣٩.

٥ (لليونسكو)، مطبوعات اليونسكو، باريس، ٢٠٠٥.

واعتبارا لما فرضته جائحة كورونا على مستوى قطاع التعليم من ضرورة الاندماج في هذا التحول، و التناغم مع التطور التكنولوجي الحديث، والذي كان التعليم عن بعد أحد صوره ؛ فإن استدعاء منظومة القيم الإنسانية والكونية ،أضحى مطلباً رئيساً واعتباراً مرعياً، لاينبغي بحال التهاون بشأنه، وإلا خابت الآمال في تأسيس معرفة تراعي ماقامت عليه السموات والأرض من قيم العدل و الخير، وما تستلزمه هذه القيم من مواصفات في مجتمع المعرفة ، وما تتطلبه الطبيعة الوجودية لبني الإنسان، ولتحقق ذلك لابد من انتماح معايير الجودة المطلوبة في التعلم، ومن ثم بناء متعلم يمتلك معرفة هائلة يدبرها وفقا للمنظور القيمي الضامن للفعل الحضاري الرشيد.

التعليم عن بعد : الأبعاد السيكوسوسولوجية

ما من شك أن فهم السلوك الإنساني شغل مساحة واسعة في حقل الدراسات النفسية ، وشيئا فشيئا توجه الاهتمام إلى دراسة سلوكيات المتعلمين في الحقل التربوي والتعليمي، اعتبارا للأهمية البالغة لهذه الدراسة ضمن قضايا التربية والتعليم بشكل خاص.

إن أنماط السلوك المختلفة ، وتعدد المواقف الاجتماعية ضمن شبكة معقدة غير مطردة ، في حيز الفصل الدراسي ، وما ينتج عن تداخل مختلف الشروط التي تكتنف العملية التعليمية ، والتي تسهم آخر المطاف في إنتاج سلوك نهائي للمتعلم ، ليس من السهولة تفسيره أو الكشف عن مضمراته غير المعلنة والتي لها تأثير ممتد على مناحي متعددة ، وهذا ما يبرر تخوفا معلنا من أثر غياب هذه الظروف النفسية والاجتماعية في نموذج التعليم عن بعد، لاحتمال الإجهاز على ماهية المتعلم / الإنسان شيئا فشيئا، على حساب اكتساب المعارف والمهارات. ذلك أن التعلم في حقيقته كما يعرفه ثورندايك« سلسلة من التغيرات في سلوك الإنسان»^٦، وبناء على ذلك فسيتشكل هذا السلوك – في التعليم عن بعد- وفقا لظروف صارمة، وغامضة في الآن نفسه، لأن غياب المواجهة المباشرة يغيب معه التدخل والتوجيه المباشرين لأجل تعديل سلوك المتعلم، أو توجيه ردود فعله، بما يتناسب والأهداف العامة التي ترومها التعليمات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن طبيعة التعليم عن بعد يخفي كثيرا من ملامح الشخصية الحقيقية للمتعلم،

٦ (هنا)، الكويت : عالم المعرفة ، ١٩٨٣، د.ط، ص ١٦.

وتستتر معه كثير من السلوكات والمهارات ، ما يعقد ثنائية المعلم / المتعلم في بعدها العلائقي وبين إنساني، لأن مقام الأستاذية هو الذي يسيطر في النهاية في التعليم عن بعد، مهما حاولنا ترصيف الخطة، وتقنين آلياتها، ومهما سعينا في توظيف النظريات الحديثة في بناء التعلم. وفي تصوري أن نجاح المعلم -من خلال ما تتيحه المواجهة المباشرة في الفصل الدراسي- في تلبية الحاجات الاجتماعية والتفسيية للمتعلمين استنادا إلى الخبرة التراكمية التي يمتلكها، هو ما سيمكن من تمهير إمكانات المتعلم، وتيسير اندماجه في المحيط المجتمعي، وتخليق ممارساته في هذا المحيط، وتوظيفه لمهاراته توظيفا أمثل في ضوء التأثيرات الاجتماعية والتغيرات الثقافية الحديثة، بعد أن يصل لمرحلة الانضمام والتأثير باعتماده على الذات والخبرة وهي المرحلة السابعة التي يصطلح أريكسون على تسميتها بمرحلة (اكتساب الإحساس بالإنتاج)^٧، وهي مرحلة منتظمة بالتأكيد في سيرورة البناء، والتأهيل، والتي يشكل الفصل الدراسي المباشر أحد أهم وأطول محطاتها ، ومرحلة الإنتاج تلك يواجه فيها « مشكلة البحث عن القضايا التي تهتمه، كالبحث عن إيديولوجية تعطي معنى لحياته، وكثيرا ما يحتاج إلى الدين أو إلى الفلسفة مرة أخرى.. وهو لهذا يكون أقرب ما يكون إلى عملية الخلق والإبداع»^٨.

فهل يمكن أن نكسب رهان الإبداع والإنتاج في غياب الظروف الصفية، ومع حجم الشرود المهول الذي نلاحظه ونحن نؤسس لمعرفة حديثة، بهذه التقنيات الهائلة؟ وهل تسهم بيئة الفصول الافتراضية و ملابسات التعليم عن بعد في توفير بيئة سيكوسوسيولوجية مناسبة للتطلعات ومتماهية مع طبيعة شخصية المتعلم باعتباره إنسانا في مقام أول قبل أي اعتبار آخر ؟

بالنسبة للباحث لا يرغب في المقامرة بأجوبة قطعية، على الأقل في هذه المرحلة، على اعتبار أن الدراسات التي قاربت هذا الموضوع بالتحديد من زاويته النفسية والاجتماعية ماتزال غير مكتملة، وربما توجي بعض حقول العلوم الإنسانية في مرحلة لاحقة- في إطار تداخل العلوم -بمعطيات أكثر دقة. ومع هذا فاستشراف البعد النفسي والاجتماعي في العملية التعليمية في ظل التعليم عن بعد، واستنادا إلى الملاحظات والظروف التي فرضته؛ يحمل في اعتقادي - مزالق خطيرة، ولا يوجي في صيغته الحالية _ خاصة لدى

٧ حسن مصطفى عبد المعطي، هدى محمد قناوي: علم نفس النمو، مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع د.ط، ج. ٢٩٠، ١.

٨ المصدر السابق، ص ٢٩٥.

الخاتمة:

إن السعي إلى إيجاد النموذج الأمثل في التعليم من خلال المزج بين توظيف التكنولوجيات الحديثة والمحافظة على البيئة النفسية والاجتماعية للمتعلم، هو السبيل الوحيد لضمان المعرفة الراشدة، ومن ثم تشكيل مجتمع المعرفة الذي يراهن على المعرفة بدل الوقوف عند عتبة الانتشاء بأدواتها ومواردها .

المصادر والمراجع

- التقرير العالمي لليونسكو: من مجتمع المعلومات إلى مجتمعات المعرفة.
- المركز الوطني للوثائق التربوية: سلسلة من قضايا التربية.
- حسن مصطفى عبد المعطي، هدى محمد قناوي: علم نفس النمو.
- حسين حمدي الطوبجي: وسائل الاتصال والتكنولوجيا في التعليم .
- غسان العمري، بلال السكارنة، أديب يوسف الخشاب: مجتمع المعرفة وتأثيره في العمل المعرفي .
- لي أيرز شلوسر ومايكل سيمونسن: نظريات التعليم عن بعد ومصطلحات التعليم الالكتروني، ترجمة نبيل جاد عزمي.
- مصطفى ناصف وعطية محمود هنا: نظريات التعلم دراسة ومقارنة .